

رواية مأسوية ساخرة تهتك خطاب "البعث" العراقي

عبد وازن الحياة 29/07/2004

في ختام رواية "إعجام" (*) للشاعر والروائي العراقي سنان أنطون يصف "الرفيق" طلال أحمد المخطوطة التي كتبها أحد سجناء مديرية أمن بغداد في كونها "عبارة عن خواطر غير متسلسلة ومشاهدات واستذكارات غير منطقية". وطلال أحمد كانت أوكلت إليه مهمة الاطلاع على المخطوطة وقراءتها و"تقطيعها" وطبعها على طريقة التقارير. وقد صدمته فيها العبارات المفززة التي تسخر من مقولات "الأب القائد" ومن قيم "الحزب والثورة ومنجزاتها" لكنه لم يستطع حذفها إصراراً منه على الحفاظ على أصل المخطوطة التي وجدت ضمن ملفات مديرية الأمن. الراوي إذاً الذي يتولى فعل السرد سيكون هو السجين المجهول الذي كتب هذا النص في الزنزانة وهو ربما اختفى أو قتل أو مات في السجن "البعثي"، والنص سيكون الرواية نفسها التي كتبها المؤلف مرتدياً قناع هذا السجين وتركها بلا نقاط وفي حال من "الإعجام" كما يفيد العنوان.

يستهل المؤلف روايته عبر استيضاح مادة "ع.ج.م" كما وردت في "لسان العرب" هادفاً الى استخلاص المعنى الذي يواتي استخدام حزب البعث العراقي لمفردة "إعجام" التي أصبحت لها عقوبة خاصة. فالأعجام يفيد - ضمن ما يفيد - الإبهام، وهو المعنى الذي تبناه الحزب معتبراً في مرسوم "العقوبة" أنه يمسّ بـ"وضوح المعنى الذي ضحى من أجله الشهداء بدمهم الغالي" وينشر "الغموض والإبهام". وكان القائد أو "القاعد" (كما يسميه المؤلف دوماً) أصدر أيضاً مرسوماً يقضي بـ"مصادرة كل المعاجم والقواميس التي حاول العدو استغلالها لزرع بزور الفتنة"، وأمر وزير الداخلية بـ"توزيع قائمة الكلمات الأساسية ومعانيها الواضحة على كل مواطن ليكون حارساً للمعنى".

ولعلّ "الهنات" التي يأخذها المثقف البعثي على المخطوطة وصاحبها ومنها "عدم التسلسل" و"عدم المنطق" في بناء النص هي أبرز ما يميّز هذه الرواية. فالمؤلف اعتمد لعبة التقطيع زمنياً ومكانياً، وعبر هذا التقطيع يتنامى الفعل الروائي ويتصاعد ايقاع السرد. وهي لعبة تجمع بين أكثر من "واقعة" تتداخل وتتفصل في الحين عينه: واقعة الطالب الجامعي الذي يقاد الى التحقيق، واقعة الحب بينه وبين أريج الطالبة الجامعية، واقعة السجن، البيت والجدة وسواها، علاوة على التداخي الذاتي الذي يتخلل النص ككل.

وإن بدت رواية "إعجام" قصيرة نظراً الى حجمها (136 صفحة) فهي حافلة بالكثير من الإشارات و"التفاصيل" التي تمرّ بسرعة حتى ليخال القارئ أن الرواية طويلة وكان لا أول لها ولا آخر. وهي أصلاً ليست رواية أحداث أو شخصيات فقط مقدار ما هي رواية مناخ يظل عصياً على الأسر. والنهائية المجهولة للبطل - الراوي (الذي ليس سوى قناع الكاتب) منحت هذه الرواية الكثير من الالتباس. ناهيك بأن الرواية لا تخفي طابعها الكافكاوي ليس فقط لأن البطل - الراوي يساق الى التحقيق من دون أن يدرك ما الميرر على غرار جوزف ك. في رواية كافكا "المحاكمة"، بل لأن مناخ الرواية يتأرجح بين واقعية الواقع وكابوسيته وكان الكابوس هو الوجه الآخر للواقع الذي فقد ذريته الواقعية. ثمة جو أيضاً يشبه جو جورج أورويل وخصوصاً في روايته الشهيرة "1984". والراوي يذكر أصلاً جورج أورويل وكيف كانت قراءته ممنوعة وسريّة في بغداد، وكيف عجز عن كتابة أطروحة جامعية عنه. وكان الراوي قرأ روايته "مزرعة الحيوانات" سراً ومقالة عن رواية "1984" وحاول استعارة هذه الرواية من مكتبة الجامعة ولم يفلح. ولم يكن عليه إلا أن يختار "فشل اللغة كوسيلة للتواصل في مسرحيات صموئيل بيكيت" مادة لأطروحته. وكان أستاذه نفسه رفض الاشراف على البحث السابق ناصحاً إياه بالابتعاد عن مثل هذه "المخاطر" على رغم أن رواية "1984" تدور حول الجو الستاليني كما يقول.

هكذا يمعن الراوي في هتك اللغة الرسمية للحزب البعثي المسيطر وفي التهكم من مقولاته الايديولوجية. فهتك اللغة هو هتك للعقيدة نفسها. وقد عمد الحزب الى تسخير اللغة لمصلحة "التعبئة" السياسية والايديولوجية فرضاً على الطلاب والكاتب والمثقفين لغة الوضوح وليس لغة الغموض أو الإبهام. وقد فرض عقوبة "الإعجام" على من يمسّ بـ"وضوح المعنى" كما ورد سابقاً. أما النموذج المثالي للاستخدام البعثي للغة فيتجلى في ما يكتب الشعراء والأدباء من نصوص تعبوية وقصائد تمتدح الحزب والقائد والثورة وفي ما يسميه الراوي "رجزاً في المعركة" والمقصود القصائد التي تمتدح الحرب مع إيران انطلاقاً من وزن الرجز. أما هتك اللغة البعثية الذي يجيده الراوي فيتمثل في اشتقاق مرادفات جديدة تلائم النظام: القائد (القاعد)، الديمقراطية (الديمضراطية)، العرس (الهرس)، البعثيون (البعصيون)، المجلس الوطني (الملحس الوطني)، الانتخاب (الانتخال)، وزارة الثقافة والإعلام (وزارة السخافة والإبهام) وسواها. وعندما يواجه الراوي في السجن أحد المحققين يفاجئه هذا المحقق (البعثي) بموقفه السلبي من "قصيدة النثر". وكان المحقق - "المثقف" علم بأن الطالب الموقوف يكتب قصائد نشر مما أثار حفظته وراح يمتدح الشعر العمودي ويهاجم قصيدة النثر معتبراً إياها "صفّ حكي" و"موضة أجنبية سخيفة" وغريبة عن "الابداع التعبوي".

لا يخفي الراوي نزعة الشعرية ومحاولته النشر في مجلة تصدر في الخارج (اليوم السابع - باريس) وهو كان يترقب دوماً صدور نصوصه فيها. فالصحف المحلية (الجمهورية مثلاً) كانت ترفض نشر قصائده تبعاً لجوها الحزين واليائس ولعدم "تعبويتها". انه شاعر حتى في روايته أو مخطوطته وخصوصاً عندما يتوجه مباشرة الى حبيبته أريج أو عندما يواجه نفسه وحيداً في السجن أو حين تعثره الحال الكابوسية.

ولعلّ الكابوس الذي يتحدث فيه عن المطر "الحبري اللون" الذي هطل عليه وعن العواء وهدير المحركات والكلاب المسعورة هو من النصوص أو المقاطع الجميلة جداً في الرواية (ص 96, 97, 98), وينتهي الكابوس عندما يفتح عينيه ويجد الأوراق البيض وسطورها الممتدة ترقد الى جانب رأسه. ويسأل نفسه: "هل أكتب؟".

هاجس الكتابة لن يغيب عن الراوي لحظة. فاللعبة الرئيسية في الرواية هي لعبة كاتب مجهول كتب في الأسر مخطوطة ملوها "الإعجام". ومثلما يكون الراوي قناعاً للكاتب نفسه تكون الكتابة فعلاً رديفاً للحياة خارج السجن وداخله. وعندما يجد أن ثمة أوراقاً بيضاً أمامه يسأل نفسه: "لماذا أعطوني الأوراق؟". لكنه سينتصر كراو على السجن وما يمثل, عبر فعل الكتابة. وعوض أن يملأ الأوراق باعتراقاته التي ينشدها السجن - الحزب يعنى في كتابة روايته الخاصة التي تجمع بين السيرة الذاتية وسيرة جزئية للحزب وبغداد والجامعة والجدّة والعائلة والحبيبة... يقول الراوي: "استيقظت لأجد نفسي هنا (ك). بياض الورق يغويني بحرية التسكع في عزلتي. سأهشم سطح الصمت بهذياني". وستكون الأوراق البيض حافظاً ليس على الكتابة فحسب وإنما على مساعلة الكتابة والهجس بها واللعب على حروفها ولكن ليس على طريقة رامبو الذي منح بعض الحروف ألواناً: "رسمت بخوف علامة استفهام وقيقت أنظر إليها ساعات", ويضيف: "ك ت ب ... كتب, كتب, كتب, كتب, كيت...". ثم يسأل نفسه أيضاً: "لماذا أكتب, لماذا لا أكتب؟... هل أدخلوني هنا لأن أحدهم كتب عني؟ سافقاً عين وحتى غين, من يحاول قراءتي!". ويضيف أيضاً: "أنحني مثل علامة استفهام". وفي مقطع آخر في الرواية يصف كيف انسلّ حرف "الألف" ووقف أمامه وخلع الهمزة وكيف دخل الباء والتاء والثاء... و"دخلت الحروف تبعاً... سرق السين نقاط الشين وضحك بصوت عال... اللام النقط همزة الألف وبدأ يصرخ... الهاء والواو وفقاً في الزاوية يضحكان. الميم نام على بطنه...". صفحات بديعة في رواية تسخر من نظام اللغة سخرتها من النظام الذي فرضه الحزب ليس على الفرد والجماعة فحسب وإنما على اللغة أيضاً. انها سخرية عابثة وسوداء تخفي وراءها الكثير من العبث والعدم والحسّ المأسوي. على أن السخرية لن تقتصر على اللغة (كأداة للحزب) بل ستشمل كذلك النظام البعثي والحياة والواقع والقدر... انها سخرية الضحية من نفسها بعد أن نزع منها حقها في التعبير وحقها في الحياة وحقها في الموت.

رواية غنية حقاً, ولا يدرى قارئها من أين تأتي الوقائع والتفاصيل والأفكار والأحوال التي تصخب بها. يكفي تتبّع حركة الراوي في انتقاله من الجامعة الى السجن ومن المنزل الذي يعيش فيه مع جدته الى عزلة الزنزانه, أو من سرير الحب الذي جمعه مرة مع حبيبته الى فعل الاغتصاب الذي تعرض له في غرفة التحقيق. رواية واقعية ولكن بجو كابوسي أو رواية كابوسية بمناخ واقعي. قد يكون الراوي شخصاً واقعيّاً بيده المشلولة التي لا تسمح له بالتصفيق والتي أنقذته من التجنيد العسكري الاضامى. وكذلك بما يسرد من قصص واقعية تدور بمعظمها في بغداد ابان الحرب العراقية - الإيرانية وفي ظلّ النظام القاسي والديكتاتوري والقمعي الذي جرد الإنسان من انسانيته وحول المجتمع الى "حديقة حيوانات" يسوسها الحزب ورجاله. والراوي لا يسرد مقدار ما يفصح ويسخر.

كان رجال الحزب (العلماني ظاهراً) يعتبرونه كافراً لأنه كلداني كما يعبر. وعندما اغتصبه أحد المحققين راح يؤنثه مخاطباً اياه كما لو أنه فتاة. أما هو فكان مهووساً بفكرة الموت هوسه بالشعر والكتابة. وكما حاول اقتناع جدته المرأة التقية التي قضت عمرها تصلياً, بأن الكلدان عرب. وكما حاول الهرب من الدروس الحزبية التي كانت تقرأ فيها نصوص ميشال عفلق وسواه. ولا غرابة أن تدور كلّ الحوارات في الرواية باللهجة العراقية العامية التي قد يفوت من لا يجيدها الكثير من التعابير. انها رواية عراقية بامتياز. رواية عراقية من شدة ما تلتقي فيها المتناقضات, ومن فرط ما تغدو الحياة فيها كابوساً طويلاً والواقع صورة عن حلم كئيب ومبعثر وعن انتظار لا ينتهي: "ان تعيش هنا, يعني أن تمضي ثلاثة أرباع عمرك في الانتظار. انتظار أشياء نادراً ما تجيء: غودو, الثورة, الباص, الحبيبة...".

قد تكون رواية "إعجام" من الروايات العراقية والعربية المهمة الصادرة خلال الفترة الأخيرة, وعدم الاهتمام بها إعلامياً يعود ربما الى ابتعاد صاحبها عن المعتكك العربي كونه يقيم في الولايات المتحدة حيث يهين رسالة دكتوراه في جامعة هارفرد.

وهي رواية تستحق فعلاً أن تقرأ كاتموذج روائي يحمل الكثير من مواصفات التجريب السردى الخالي من الاصطناع والافتعال. رواية فريدة في جمعها بين التوثيقي والشعري, بين السخرية و"الكابوسية", بين الوعي الفني المرهف والهذيان اللغوي الجميل.

(* دار الآداب, بيروت 2004).